جَماليات النَّصّ في مفهوم التَّكَامل

عند الدكتور صابر عبد الدّايم

إعداد

أ.د. أحمد هاشم السامرائي

جامعة سامراء - كلية التربية - قسم اللغة العربية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تعددت المناهج النقدية الحديثة واختلفت مراميها ، فأخذ كل دارس مأخذه منها ، فظهرت مجموعة من التوجهات التي اعتمدت على القراءة ، لتظلّ هذه العملية مفتاحًا إجرائيًّا للولوج في المناهج النقدية والأدبية مجتمعة أو منفردة ، فتبيح الشمولية والموازنة والمقارنة ، ويشترك فيها ذوق الناقد وفكره ، للكشف عن مواطن الجمال أو القبح في الأعمال الأدبية .

ينظر الناقد في النصوص الأدبية شعرية كانت أو نثرية ويأخذ الكشف عن مواطن الجمال والقبح فيها معللاً ما يقوله ومحاولاً أن يثير في نفوسنا شعورًا بأن ما يقوله صحيح ، لذلك لا يوجد لدينا نقد أدبي صائب وآخر خاطئ ، وإنما يوجد نقد أدبي أكثر قدرة على تأويل العمل الفني وتفسيره من غيره ، واختلاف مناهج النقد معناه اختلاف في وجهات النظر .

يعتمد النقد الأدبي الحديث غالبًا على النظرية الأدبية ، وهي النقاش الفلسفي لطرق النقد الأدبي وأهدافه ، وعلى الرغم من العلاقة بينهما فإن النقاد الأدبيين ليسوا دائمًا منظِّرين .

يعدُّ مفهوم التكامل من الأسس التي يقوم عليها النقد العربي الحديث ، فهو نزوع إلى تأصيل نظرية عربية نقدية خالصة من التبعية والوقوع في أسر المصطلحات الوافدة ، لأن النص يبوح بأسراره اللغوية والصوتية والاشتقاقية والإيقاعية والبلاغية وغيرها ، فيجول هذا المنهج داخل النص .

سلك عدد من المحدثين هذا المسلك ، فوجدوا أن النص لا يخـــرج عن المنهج التكاملي ، ومنهم الأستاذ محمود محمد شاكر ، والأديب ســيد قطب ، والأستاذ الدكتور شوقي ضيف والأستاذ الــدكتور عبــده بــدوي والأستاذ الدكتور صابر عبد الدايم وغيرهم ، فحاولوا المزج بــين الــنص الأدبي وهذا المنهج ، ولأجل ذلك عزمت الأمر متوكلاً علـــى الله ﷻ فـــي كتابة شيء عن هذا المنهج ، فاخترت مفهوم التكامل عند الأستاذ الــدكتور صابر عبد الدايم في كتابه (آفاق النص الــشعري فـــي مــرآة المــنهج التكاملي) ، فوسمت بحثي بـــ :

جماليات النص في مفهوم التكامل عند الدكتور صابر عبد الدايم

اقتضت طبيعة البحث أن يكون مقسمًا على مبحثين ، وعلى النحو الآتي :

المبحث الأول : وخصصته لـــ (**معالم المنهج التكاملي الأســس والآليات**) ، فتناولت فيه : (**مفهوم التكامل في رصد جماليات النص**) ، و(**مكونات النظرية الأسلوبية**) ، و(**النقد الأدبي وهوية الأمة فـــي ظـــل الرؤية التكاملية**) ، و(**النقد الحديث والمناهج المتداخلـــة**) ، و(**النقـــد الأدبي والبنيوية والتفكيكية**) .

المبحث الثاني : وخصصته لـــ (**النص الشعري في ضوء معـــالم المنهج التكاملي**) ، وتناولت فيه : (**النص الشعري وتـــداخل الأجنـــاس الأدبية**) ، و(**الرؤيات والأفكار ، من أحادية الدلالة إلى الدائرة التأويلية**) ، و(**المعجم الشعري والبناء الأسلوبي**) ، و(**التشكيل بالصورة وظاهرة تعانق الفنون**) ، و(**القيم الصوتية في النص ودورها في تشكيل التجربة الشعرية**) .

الخاتمة : وذكرت فيها أهم النتائج التي خرجت بها من البحث .

وفي الختام أدعو الله العلي القدير أن يوفقني في عملي هــذا ، وأن يلهمه القبول في مشاركته ، وأن يوفِّق العاملين على المؤتمر لمــا يحبــه ويرضاه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المبحث الأول

معالم المنهج التكاملي (الأسس والآليات)

يحظى النص الأدبي بمكانة كبيرة في مفهوم الفكر ، إذ تجول أفكار هذا النص عند القارئ ، فيحاول الوقوف على جزئياته من خلال رصد جمالياته وتتبع ثغراته ، لذلك نجد الأديب ينحو بنصِّه نحو الكمال في العبارة والأسلوب ، وشحنه بالأحاسيس والأفكار .

ويكتسب المنهج أهميته من كونه المفتاح الرئيس للتحكم في البحث والطريق لتوليد الدلالات والأفكار الجديدة ، وإضاءة الجوانب المتعددة في النصوص ، إذ ليس المنهج أداة فحسب بل هو رؤية للعالم والوجود ، تسندها خلفية معرفية وفكرية تؤطره وتحدد أهدافه المترامية ، وتكشف لنا عن أي وجه للمعنى أوضحت ، وأي طريقة تناولت للوصول إليه .

مفهوم التكامل في رصد جماليات النص

ممَّا لا شك فيه أنَّ غاية الأديب أن يصل بنصِّه إلى درجة عالية من الكمال ، حتى ((لا يظلّ أسير المعنى الأحادي والدلالة الضيِّقة ، وإنَّما تتعدد أبعاده بتعدد قرَّائه ، وهو في أرقى تصور له يشبه المدينة الأسطورية التي تتعدد مداخلها بتعدد روادها))[1] .

يأخذ النص الأدبي أدواته من أفكار صاحبه ، فتتحدد بذلك مستويات بنائه الفني والجمالي ، لذلك نجد الدكتور صابر عبد الدايم يحدد هذه المستويات بـ :

---

(١) آفاق النص الشعري ١١ .

١. المستوى الصوتي .
٢. المستوى الصرفي .
٣. المستوى النحوي .
٤. المستوى المعجمي .
٥. المستوى البياني .
٦. المستوى الكتابي .
٧. المستوى الإيقاعي .
٨. المستوى الدلالي .

فقال بعد ذلك : ((وهذه المستويات يمكن أن تتلاقى مع المناهج المألوفة في رصد أبعاد التجربة في النص ... ويمكن أن تستقل هذه المناهج في رؤيتها ومدخلها للنص))[١] .

والذي يبدو لي أن دراسة المستويات البنائية للنص هي التي تحدد الكثير من سماته ، لذلك علينا أن نعلم حقيقة هي أن هذه الدعوة لا تعني ((إيجاد فاصل حاسم بين مستوى الأداء الأدبي ومستوى الأداء المألوف ، ذلك أن المستوى الأول يستمد شرعية وجوده من المستوى الثاني ، وتتحرك دراسة الإطار الدلالي المركب من حدود الجملة بعمقها اللغوي ، الذي قام أساسًا على عملية الاختيار للمفردات وما فيها من طبيعة استبدالية ، تتيح للمبدع أن ينتقي ويختار ، ويفضّل دالاً على آخر))[٢] .

ظهرت الدعوة إلى المنهج التكاملي عند الغربيين أوّلاً ، إذ نجد إشارة إليه عند الناقد ستانلي هايمن في قوله : ((لو كان في مقدورنا ،

---

(١) المصدر نفسه ١١ ــ ١٢ .
(٢) جدلية الإفراد والتركيب ١٣٤ .

وهذا مجرد افتراض ، أن نصنع ناقدًا حديثًا مثاليًّا لما كانت طريقته إلاَّ تركيبًا لكل الطرق والأساليب العملية التي استغلها رفاقه الأحياء ، وإذن لاستعار من جميع تلك الوسائل المتضاربة المتنافسة ، وركب منها خلقًا سويًّا لا تشويه فيه ، فوازن التقصير في جانب بالمغالاة في آخر ، وحَدَّ من الإغراق بمثله حتى يتم له التعادل ، واستبقى العناصر الملائمة لتحقيق غاياته))[1] .

نلحظ من كلام هايمن أنَّه ينحو نحو التكامل في النص الأدبي من خلال تلافي سلبيات النص بما فيه من إيجابيات ، ولكن كل هذا يتوقف على وظيفة ما يسمى بـ (الناقد الواقعي) ، والذي حدده هايمن أيضًا بقوله : ((إنَّ قسطًا صالحًا كبيرًا من التكامل ممكن ، وإنَّه في طوق إنسان واحد أن يستعمل عددًا من الطرق والمذاهب ، خذ مثلاً كنث بيرك ، تجد هذا الناقد قد أدَّى بين الحين والحين كلَّ الأدوار التي يشملها النقد الحديث ، ... ، وقد كان نصيب رتشاردز وامبسون وبلاكمور أقل من ذلك ، لأنهم لم يكثروا من التركيب بين الطرق النقدية ، ... ، وهؤلاء هم خيرة نقَّادنا ، وقد كان التكامل في أعمالهم موفقًا ناجحًا))[2] .

سرى المنهج التكاملي إلى النقد الأدبي العربي الحديث ، فحاول الدكتور عبد الدايم وصفه بأنه ((يعدُّ نزوعًا إلى تأصيل نظرية عربية نقدية ، إلاَّ إذا أعدنا إنتاجها ووظَّفنا دلالاتها وسياقاتها ، بحسب معطيات

---

(١) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ٢ / ٢٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٥٥ .

النص المنتج ، في مناخ يتنفس خصائص وجماليات اللغة العربية ، وهي تحفل بالثراء والعطاء والإيحاءات والأصداء))[١] .

تعدُّ المذاهب والاتجاهات النقدية الحديثة أسسًا لتوظيف آليات المنهج التكاملي ، ومنها التعبيرية ، التي أصبحت ((من المداخلات النقدية الجديدة ، وتتصدر الكثير منها ، ومن خلالها تتجلى بعض التيارات والاتجاهات الأدبية والنقدية ، وذلك أنها أصبحت قاسمًا مشتركًا أعظم في جلها ، وعلى وجه الخصوص : الأدبية والأسلوبية والشعرية))[٢] .

تلتقي التعبيرية مع مجموعة التيارات والاتجاهات المتعددة ، إذ ((أخذت من الكلاسيكية عنايتها بالنص ، ومن الرومانسية إعمالها بالذات الإبداعية ، ومن الواقعية تمثُّل الواقع للنص ، فضلاً عن تجاوزها الطبيعة في اعتماد الانطباعات النفسية عنها ، كما تجاوزت الرمزية في حرصها على النقاء الذاتي بالموضوع ، دون الفصل الذي وقعت في شركه الرمزية ، حتى استطاعت أن تتجاوز الوسائل الفنية العتيقة ، واستطاعت أن تصنع لغة جديدة وصياغة أكثر قدرة على احتواء التجربة الإنسانية))[٣] .

مكونات النظرية الأسلوبية

تعدُّ النظرية الأسلوبية من النظريات التي يعتمد عليها الناقد في المنهج التكاملي ، وحدَّد الدكتور عبد الدايم مكونات هذه النظرية ، وبحسب النص وسياقاته وفضاءاته ، ومن هذه المكونات[٤] :

---

(١) آفاق النص الشعري ١٢ .

(٢) آفاق النص الشعري ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٣ ، وينظر : منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ٥ ــ ٦ .

(٤) ينظر : آفاق النص الشعري ١٤ .

١. مفهوم الأسلوب : ويتحدَّد مفهوم الأسلوب بعدة جهات ، وهـــي :

أ. جهة النص .

ب. جهة المبدع .

ت. جهة المتلقي .

٢. الاختيار : ويرتكز على عدَّة دعائم ، منها :

أ. اختيار الموضوع بمعناه العام .

ب. الاختيار الأسلوبي .

ت. اختيار الشفرة اللغوية .

ث. الاختيار النحوي .

٣. الانزياح والعدول : ويرد بعدَّة أشكال ، منهـــا : الانزياحـــات الصوتية ، والصرفية ، والتركيبية ، والدلالية ، والخطِّيَّـــة أو الكتابية .

٤. التلقي أو المتلقي : ويُقصَد به القارئ العادي والقارئ العمدة ، وهو الناقد الخبير البصير .

٥. السياق : ويرد بعدَّة دلالات ، منها :

أ. الظروف الاجتماعيـــة والثقافيـــة والاقتـــصادية والشخـــصية المحيطة بالمؤلف والقارئ .

ب. سياق الإنتاج .

ت. سياق الاستقبال[١] .

---

(١) ينظر : اتجاهات النقد والأسلوب نقلاً عن : آفاق النص الشعري ١٤ .

ويخضع النص إلى مجموعة من المعايير المميزة ، ومنها : السبك ، والحبك ، والقبول ، والإعلام ، والمقامية ، والتناص ، وهذه المعايير مهمة جدًّا للناقد ، فلا يمكن الاستغناء عنها في ضوء المنهج التكاملي[١] .

النقد وهوية الأمة في ظل الرؤية التكاملية

يرتبط النقد الأدبي بهوية الأمة ارتباطًا مباشرًا ، إذ تحفل مصادر التراث بعشرات النصوص التي تمثل الصورة النقدية في أولى مراحلها ، سواء النقد الأدبي أو النقد اللغوي ، وما لبث هذا التوجه أن تطوَّر ليصير علمًا قائمًا في مؤلفاته ونظرياته ومباحثه ، إذ ((عالج النقد العربي النصوص الشعرية والنثرية وفق [كذا][٢] خصائص اللغة العربية وطبيعتها ، وانطلاقًا من مقومات البيئة العربية والإسلامية وتقاليدها زمانًا ومكانًا وقيمًا وأسسًا ومبادئ))[٣] .

حاول الدكتور عبد الدايم التركيز على معالجة النقد العربية الجزئية للنص ، وتحديد محاورها من مبدأيْ : خصوصية الأداء ، وتكامل الرؤية ، والمحاور هي :

١. معالجة الشكل ، أي : موسيقى الشعر وألفاظه وقوافيه .

٢. معالجة المعنى ، أي : المضمون في ضوء السياق والتقاليد والأغراض والعقيدة وأعراف البيئة وتقاليدها .

---

(١) ينظر : آفاق النص الشعري ١٤ .

(٢) الصواب (على وفق) .

(٣) آفاق النص الشعري ١٥ .

٣. نقد الشعور ، وهو : تقويم عاطفة الشاعر والوقوف على مدى صدقه في تجربته ، والبحث عن العوامل التي تثير المشاعر والانفعالات ، وتسمى منابع التجربة .

٤. الوقوف على خصائص الشعراء ومذاهبهم الفنية .

٥. الموازنة بين الشعراء ، إذ نجد الموازنة بصور مختلفة ، فتكون بين شاعرين من طبقة واحدة أو مذهب واحد أو غرض واحد .

٦. تقسيم الشعراء وترسيخ أسس المنهج التاريخي ، وهو واضح من منهج ابن سلاَّم في كتابه (طبقات فحول الشعراء) ، إذ نجده يشير إلى تحقيق نسبة النص إلى صاحبه ، مع توافر الدراية والخبرة والذوق الأدبي ، وممارسة النقد ، فضلاً عن ضرورة تفسير الظواهر الأدبية والوقوف على أسس المفاضلة بين الشعراء[١] .

لم تقتصر توجهات النقد الأدبي على ما سبق ، إذ نجد الدكتور عبد الدايم يعدُّ علم البلاغة ، بعلومه الثلاثة ، قواعد نظرية يستطيع الناقد خلالها الوقوف على جماليات النص الأدبي ، وعلى وفق ما يسمَّى بـ (المنهج الفني)[٢] .

النقد الحديث والمناهج المتداخلة

حاول النقاد العرب المحدثون الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة ، من خلال تطبيق آليَّاتها على النقد العربي ، ونجح جماعة منهم ، ولكي يقف القارئ ميدان الناقد وتعامله مع هذه المناهج .

---

(١) ينظر : آفاق النص الشعري ١٥ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه ١٥ .

نجد الدكتور عبد الدايم أعطى صورة موجزة لهذا العمل ، إذ أثقل أصحاب المنهج النفسي النص بتراكمات مصطلحاتهم العلمية وتفسيراتهم السيكولوجية من خلال إضفاء ضوء اللغة على النص ، ولكن لا ينكر دورهم في تطور النقد ، في حين نجد أصحاب المنهج الاجتماعي يضحون كثيرًا بجماليات النص الفنية ، لأنَّهم يعنون بالمضمون الاجتماعي ، وتحمسوا للنصوص الرديئة التي وافقت منهجهم[١] .

النقد الأدبي والبنيوية والتفكيكية

استقت مجموعة من النظريات النقدية مادتها من التوجهات الفلسفية ، ومنها : البنيوية ، فضلاً عمَّا يسمَّى (ما بعد البنيوية) ، فكان للثراء الفلسفي دور في نمو التفسير اللغوي للوجود، وجاءت بعدها التفكيكية ، التي تنتقد الطرح البنيوي ، وهو ما أدَّى إلى ردِّها ، فمنهم من وصفها بالعمل التعسفي[٢] ، وقيل : التفكيكية لعبة[٣] ، وقيل : ((التفكيك يستلزم تبعات عبثية))[٤] .

وصف الدكتور عبد الدايم البنيوية والتفكيكية بأنهما أحالتا النص إلى كابوس ثقيل ، لأنَّهما جعلتا من النص أحاجي وطلاسم ، فقام منهجهما على موت المؤلف من أجل أن يحيا النص ، ((وكاد القارئ أن يموت غيظًا كَمَدًا ، لأنَّ مبادئ النقد ومصطلحاته كلها بضاعة مستوردة من حقول مغايرة لا تصلح زراعتها في حقولنا ، ونابعة من حقولٍ مكوناتُها

---

(١) ينظر : المصدر نفسه ١٦ .

(٢) ينظر : القول الفلسفي للحداثة ٢٩٣ .

(٣) ينظر : قواعد الفن ٣٦٥ .

(٤) عودة أخرى للميثولوجيا البيضاء ٦٢ .

المعرفيَّة والوجدانية والإدراكية تتباين مع مكوناتنا الثقافية والاجتماعية والشعرية ، ويا ليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكن أصحاب هذا المنهج أحالوا النص المفقود ، كما يقول الدكتور عبد العزيز حمودة ، إلى غابة متشابكة من البيانات والجداول الإحصائية والرسومات المعقدة من الدوائر والمثلثات والخطوط المتوازية والمتقاطعة والساقطة))[١] .

ويمكن للقارئ العزيز في خضم هذا الصراع أن يسأل : هل تصلح البنيوية أو التفكيكية لدراسة النقد الأدبي العربي ؟

أجاب الدكتور عبد الدايم عن هذا السؤال بقوله : ((إنَّ موجات النقد الحداثي من البنيوية إلى التفكيك اتخذت مجرى وتيارًا معاكسًا لهوية الأمة ، لأنَّ مبادئها منقولة بكلِّ مثالبها عن الفلسفة الغربية القائمة على المادة والشك ، وهذه الفلسفة لم تلق القبول التام من أصحابها ، فاعترض عليها الكثيرون ، بينما نحن في العالم العربي أخذنا نهلل مبهورين ومخدوعين لكل عبارة تتسلل إلينا أو تهجم علينا ، وكانت النتيجة الفشل والعجز ، وفي النهاية ينادي الآن أصحاب البنيوية والتفكيك سابقًا ، ينادون بموت النقد الأدبي وإحياء النقد الثقافي))[٢] .

إذًا صار واضحًا لدينا أنَّ تطبيق مجموعة من النظريات النقدية الحديثة على النقد الأدبي العربي يؤثِّر سلبًا على مفهوم النص ، ويخرجه من إطاره الفني الرائع ، وبالموازنة بين تحليل النص الأدبي قديمًا وحديثًا نلحظ الفرق بينهما ، حتَّى إنَّنا نجد ما يشبه مسخ النص وتشويهه ، لذلك نجد الدكتور عبد الدايم يوافق ما ذهب إليه الدكتور عبد العزيز حمودة في

---

(١) آفاق النص الشعري ١٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٧ .

أنَّ دراسة الشعر الجاهلي على وفق هذه النظريات ((ليس مجرد إنطـــاق القصيدة ، بل إنَّه تعذيب حقيقي للنص الإبداعي))[١] .

والذي يبدو لي أن خطر البنيوية ليس كخطر التفكيكية ، كما يـــرى الدكتور عبد الدايم ، لأن التيار البنيوي يعطي للناقد نظرة جديـــدة للـــنص الأدبي ، وبفضله يأخذ بأحادية الكتابة لا بثنائيتها ، وهي الثنائية التقليدية ، التي استطاعت أن تفرق بين الفكرة والتعبير عنها ، فبهذا يظهر لنا الـــنص الأدبي على أنه مجموعة أصيلة من العلاقات المتبادلة[٢] .

---

(١) المصدر نفسه ١٧ .

(٢) ينظر : النقد والأدب ١٥ .

المبحث الثاني

النص الشعري في ضوء معالم المنهج التكاملي

بعد أن اتضحت لدينا في المبحث الأول الأسس والآليات التي وضعها الدكتور صابر عبد الدايم للمنهج التكاملي ، شرع في هذا الموضوع بوضع مكونات النص الشعري ، لأنَّ هذه المكونات تكشف بدورها عن إيحاءات ومضامين ورموز وعوالم فنية في النص ، ومن هذه المكونات :

١. النص الشعري وتداخل الأجناس الأدبية

كشف الدكتور عبد الدايم في هذا المكوِّن تداخل الأجناس الأدبية وتبادلها التأثر والتأثير ، وحاول التمثيل على ذلك بتلاقي القصة والقصيدة ، ((وكذلك الشعر القصصي القائم على دعائم القصة الفنية من حوار وأحداث وشخصيات وغير ذلك من أسس ، ومن مقومات القصة مع الاحتفاظ بوهج اللغة الشعرية ذات الإيحاء النفسي والاجتماعي والبعد عن اللغة النثرية والمعاني التقريرية ، وهناك المسرحية الشعرية ، وهي تقوم على أس الفن المسرحي ، مع عدم انطفاء البريق الشعري))[١] .

لم يقتصر حديث الدكتور عبد الدايم في هذا المكوِّن على الأجناس الأدبية ، وإنَّما خلط معها الفنون الجميلة ، كالرسم والتصوير والنحت والموسيقى ، ((وكثيرًا من الشعراء وصفوا تماثيل ورسومًا وحتَّى الموسيقى كانت من مصادر إلهامهم الشعري ، ويقال : إنَّ سبنسر استلهم بعض قصائده الوصفية من القماش المزيَّن والمواكب ، واستقى كيتس

---

(١) آفاق النص الشعري ١٨ .

تفاصيل قصيدته (على قارورة يونانية) مـــــن إحـدى صـور كلـود لورين))[1] .

صار واضحًا لدينا العلاقة بين الأجناس الأدبية والفنون الجميلة من جهة والشعر من جهة أخرى ، ولكن ما يمكن ذكره أن الدكتور عبد الدايم في هذه العلاقة أكثر ممَّا يسمَّى بـ (الإبداع الأدبـي) ، إذ عـرَّف هذا الإبداع بقوله : ((فالإبداع الأدبي ، هو : ذلك الشعاع المنبثـق مـن وجدان الأديب وعقله ، ليضيء آفاق الحياة أمامه وأمام الآخرين))[2] .

ولكن ما علاقة الإبداع بالأجناس الأدبية ؟

ممَّا لا شكَّ فيه أن الإبداع يتلوَّن بألوان المبدع المختلفة ، فإذا تلوَّن بلون العاطفة ، ويكون الوزن والإيقاع مصدري الإبداع ، يتحـصَّل لـدينا الشعر ، في حين لو تلوَّن الإبداع وتشكَّل من لبنات التجربة الموضـوعية والبعد عن الذات ، مع صنع الأحداث والأشخاص والحوارات ، تتحـصَّل لدينا القصة ، وحين يتلوَّن أيضًا بلون الحركة وتتصارع خيـوط الـضوء وتتقابل المنحنيات وتتلاقى المتوازيات ، وتعلو نغمـة الحركـة ويتحـرك السكون ، ينبثق فن المسرحية ، أمَّا حين يتلوَّن بلـون الـزمن ويرصـد

---

(١) المصدر نفسه ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٩ ، نظر نقاد آخرون إلى الإبداع على أنه ((لغة يمتـزج فيهـا الخاص بالعام والذات بالموضوع على نحو متميز ، يحمل بصمات الكاتب أو الشاعر ، وبذلك ينتقل إلينا فكر المبدع وعواطفه وخيالاته على نحو متميز ، أي عبر لغة خاصة تمتاز بالابتكار والإدهاش)) علاقة النقد بالإبداع الأدبي ١٥ .

التراكمات الحضارية الآنية ويقتحم حواجز العقل ليفتح مغاليق النفــوس ، ليصنع لنا الرواية[١] .

٢. الرؤيات والأفكار ، من أحادية الدَّلالة إلى الدائرة التأويلية

تعدُّ الرؤيات والأفكار من العناصر المهمَّة التي تكشف عن توجُّــه صاحب النص ، فضلاً عن أنَّ النص الأدبي قد يحتوي علــى أكثــر مــن رؤية ، لذلك نجد الدكتور عبد الدايم ينصُّ على الوقوف على نوعية هــذه الرؤية بقوله : ((حين نرصد أفكار الشاعر أو رؤيته الــشعرية علينــا أن نقف على نوعية هذه الرؤية ، هل هي رؤية سياسية أو اجتماعية أو ذاتيــة أو دينية ، أم أن النص يموج بهذه الرؤى من خلال الرمز المــشع واللغــة الإيحائية ؟

ويمكن في هذه الحالة أو ذلك القناع أن نقرأ القصيدة أكثــر مــن قراءة ، وأن تتعدد وجوه التأويل في تفسيرها ، والنص آنذاك يفسر رؤيــة قارئه بقدر ما يكشف عن ثراء آفاق مبدعه وخصوبة موهبته))[٢] .

إذًا نحن الآن تجاه نوعين من النصوص ، نص أحــاديُّ الرؤيــة ونصٌّ متعدد الرؤية ، ولكن كيف يمكن رصد معالم الرؤية ؟

كشف الدكتور عبد الدايم عن هذه المعالم بقوله : ((وفــي مجــال رصد معالم الرؤية على الناقد أن يستفيد مــن آليــات المــنهج التــاريخي والمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي ، حتى لا يقع فريسة النقد التفسيري أو الانطباعي))[٣] .

---

(١) ينظر : آفاق النص الشعري ١٩ ــ ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠ ، وبدأ بذكر مهام كل منهج من هذه المناهج .

نلحظ ممَّا ذهب إليه الدكتور عبد الدايم أن آليات المنهجين النفسي والتاريخي مفيدة في رصد الرؤيات والأفكار ، ولكنه لم يكشف عن ضرورة تناول صاحب النص ، قال سيد قطب : ((وهكذا ننتهي إلى القيمة الأساسية لهذا المنهج ، أي : التكاملي ، في النقد ، وهي أنَّه يتناول العمل الأدبي من جميع زواياه ، ويتناول صاحبه كذلك ، بجانب تناوله للبيئة والتاريخ ، وأنه لا يغفل القيم الفنية الخالصة ، ولا يغرقها في غمار البحوث التاريخية أو الدراسات النفسية ، وأنه يجعلنا نعيش في جو الأدب الخاص ، دون أن ننسى مع هذا أنه أحد مظاهر النشاط النفسي ، وأحد مظاهر المجتمع التاريخية إلى حدٍّ كبير أو صغير))[١] .

٣. المعجم الشعري والبناء الأسلوبي

للغة مكانة كبيرة في بناء النص الأدبي ، فهي ((الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم [كذا][٢] الكلمة أداة للتعبير ، هي أول شيء يصادفنا ، وهي النافذة التي من خلالها نطلُّ ومن خلالها نتنسَّم))[٣] .

يتَّسم النص الإبداعي بلغة فائقة مؤلفة من مجموعة من الكلمات ، وهي التي يسمِّيها رومان ياكوبسون (البنيات الشعرية) ، ويميِّز كلَّ بنية إسقاط مبدأ التماثل من محور الاختيار على محور التأليف[٤] .

يجسد الأديب أفكاره ومشاعره باللغة ، وفيها يوصل ما يريد لمن يقرأ ، لذلك تعدُّ معرفة لغة النص الأدبي وسيلة مهمة من وسائل الوصول

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ٢٥٦ .

(٢) الصواب (يستعمل) .

(٣) الشعر العربي المعاصر ١٧٣ .

(٤) ينظر : نقد استجابة القارئ ٧٨ .

إلى فكر الكاتب ، وهو ما حاول الدكتور عبد الدايم الوصول إليه ، فنجده يضع مجموعة من الأسئلة الخاصة باللغة ، وهي :

ــ ما قيمة هذه اللفظة أو الكلمة في سياقها ؟

ــ هل الكلمة مشعة بمعان أخرى أو لا ؟

ــ هل اقتصر الشاعر على مدلولها المعجمي أو فتح لها دروبًا من الأحاسيس بحسب انتقائه لها ، وبما تثيره اللفظة من ظلال وإيحاءات ؟

ــ هل اللفظة مقبولة مستساغة أو ثقيلة على السمع مستهجنة ؟

ــ هل اللفظة فصيحة دالَّة أو سوقية مبتذلة ؟

ــ هل اللفظة مناسبة للمقام أو أنَّها متكلفة جاءت في غير موضعها ؟

ــ ما مدى حظِّها من التقليد والتجديد ؟[١]

ومن خلال الإجابة عن هذه الأسئلة ستتضح الصورة النصية أمام الناقد ، لأنَّ أيَّ نصٍّ يمتلك البنية الخاصة بإنتاج الدلالة فإنَّه يعني امتلاكه لسانيات خاصَّة به ، وهذا ما يقوم على توجيه عملية التلقي[٢] .

لم يقتصر البحث في لغة النص الأدبي على المفردات ، وإنَّما تجاوزها إلى التركيب أو الجملة الشعرية ، فلا بدَّ من البحث ((عن الصياغة الزمنية والأسلوبية لهذه التراكيب ، وأساليب النحو العربي لها دور لا ينكر في ذلك المنحى ، ولذلك نفتش عن أسرار الأساليب التي يكثر

---

(١) ينظر : آفاق النص الشعري ٢١ .

(٢) ينظر : حفريات المعرفة ٤٧ .

منها الشاعر في تفسير جماليات النص))[1] ، ووضع الدكتور عبد الدايم في هذا التفسير سؤالين ، وهما :

ــ ماذا وراء أساليب : الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والتمني ، والترجي ، والإغراء والتحذير ، والتكرار ، والمدح والذم ... إلخ .

ــ لماذا يكثر الشاعر أسماء الفاعلين ، أو صيغ المبالغة ، أو الصفات المشبهة ، أو الحال ، أو التمييز ؟

ويقول بعد ذلك : ((كل هذه الجماليات والظواهر الأسلوبية علينا أن نتأمَّلها ونحن بصدد فحص النص وتشريحه فنِّيًّا ، ونفتِّش عن الأسرار التي تكمن في كل تكوين ، مثل : الطباق ، والمقابلة ، والجناس ، والترصيع ، والتجريد ، والمزاوجة ، ومراعاة النظير ، والتدبيج وغير ذلك ، ولا نغفل الظواهر الأسلوبية الحديثة ، مثل : السياق ، والاختيار ، والانزياح أو العدول أو الانحراف عن النمط ، والتلقي ، والقارئ العمدة أو القارئ العادي ، وما يحدثه النص من تفاعل وآثار بين المنشئ والمتلقي والمدلول))[2] .

وأنا أوافق الدكتور عبد الدايم في هذا ، لأنَّ النص الإبداعي يمتلك سياقًا واحدًا يمثل جميع علاقاته الإسنادية والتركيبية ، وهو الطريق الذي تتجلى فيه الجمل الكبرى ، فلو جعلنا النص بنية دلالية واحدة ، فهذه البنية مكوَّنة من مجموعة من اللبنات الداخلية ، التي أُنتِجَت ضمن بنية نصِّيَّة ، وبين النص والبنية النَّصِّيَّة علاقة جدلية قائمة على أساس التفاعل الذي

---

(١) آفاق النص الشعري ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢ .

يأخذ طابع الهدم والبناء[١] ، وسيساعدنا على تحديد المبدع من المادة اللغوية التي اختزنها في ذاكرته ، فضلاً عن تحديد الموقف الذي يتخذه من طريقة الأداء وربط الدوال بمدلولاتها من جهة، وربط بعض الدوال ببعض من جهة أخرى[٢] .

وفي هذه الحالة علينا أن ننطلق بالنص من خلال جدلياته وثنائياته اللغوية التي ستجد لنا تأويل المعنى ومعنى المعنى ، ولذلك ستكون القراءة هنا نصية بحتة .

٤. التشكيل بالصورة وظاهرة تعانق الفنون

خلا الموروث الأدبي والنقدي من مصطلح (الصورة) ، وهذا لا يعني جهلهم به ، بقدر ما يعني أنَّه مصطلح حديث ، ((صيغ تحت وطأة التأثر بمصطلحات النقد الغربي والاجتهاد في ترجمتها))[٣] .

تحظى الصورة وتشكيلها بمكانة كبيرة في النص الأدبي ، إذ يستطيع الناقد الوقوف على صور الشاعر وأخيلته من خلال المنهج القصصي ، غير أن ملاحظة الصورة لا تقتصر على الجانب الشكلي من تشبيه واستعارة وكناية ، وإنَّما يجب أن ((نبحث عن الدوافع إلى ذلك التشبيه ، وعن العلاقة الخفية بين أطراف الصورة الشعرية ، وعن حظِّ هذا التشبيه من الجدة والابتكار أو من التقليد والمحاكاة ، وعن مدى فهم الشاعر للعلاقة بين فنون التعبير المختلفة ، وكيف تلتقي صوره الشعرية

---

(١) ينظر : انفتاح النص الروائي ٣٢ .

(٢) ينظر : جدلية الإفراد والتركيب ١٣٤ .

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ٧ .

مع فن الرسم وفن التصوير وفن النحت ؟ وما مدى حظه من المقولة المشهورة : (الرسم شعر ناطق ، والشعر رسم صامت)[١]))[٢] .

نلحظ من كلام الدكتور عبد الدايم أن الإبداع الأدبي يجب أن ينظر إليه من نواحٍ متعددة وطرق مختلفة ، فصورته ليست زينة عارضة وضعت على سطح القصيدة ، يمكن لها أن تنفصل في أي وقت[٣] .

٥. القيم الصوتية في النص ودورها في تشكيل التجربة الشعرية

ترتبط القيم الصوتية بموسيقى الشعر ارتباطًا مباشرًا ، لأنَّها تكشف عن إيقاعات النص وموسيقاه الداخلية والخارجية ، و((وتعدُّ الموسيقى من أبرز مظاهر الشعر عمومًا والعربي خصوصًا))[٤] ، ولهذه الأهمية نجد ((القدماء من علماء العربية لا يرون في الشعر أمرًا جديدًا يميِّزه من النثر إلاَّ ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي))[٥] ، لذلك قيل : ((إنَّ الشعر موسيقى ذات أفكار))[٦] .

ركَّز الدكتور عبد الدايم على مسألة موسيقى الشعر من خلال معرفة البحر الشعري ، ثم البحث بعد ذلك في القصيدة وقافيتها وأوزانها وموسيقاها ، ونجد في هذا البحث إجابة عن الأسئلة التي افترضها الدكتور عبد الدايم ، وهي :

---

(١) هذه المقولة للإغريقي سيموندس .

(٢) آفاق النص الشعري ٢٢ .

(٣) ينظر : الصورة الشعرية ٢٢ .

(٤) الشعر في بلاط الغساسنة ١٣٣ ، وينظر : الإيقاع في الشعر العربي ١٩ وما بعدها .

(٥) موسيقى الشعر ١٤ .

(٦) العروض والقافية ٥ .

ــ هل سارت القصيدة على قافية واحدة أو نوَّعَ الشاعر قوافيــه ؟ ونحدد التنويع ونفسِّر الأسباب الداعية إليه .

ــ هل جدَّد الشاعر في أوزان موسيقاه أو قلَّد غيره ؟

ــ هل حاد عن الوزن الصحيح أو سلك الدرب السليم ؟[١]

لم يقتصر البحث في موسيقى الشعر عمَّا ســبق ، وإنَّمــا يجــب الاهتمام بمظاهر الإيقاع الأخرى ، كما يوضحها الدكتور عبد الــدايم فــي قوله : ((والبحث بعد ذلك عن مظاهر الإيقاع الأخــرى فــي الحــروف والكلمات ، والتضعيف والإدغام ، وعلاقة الحروف الممدودة أو المقصورة بالمعاني التي صارت الكلمات صورًا مكتوبة لهــا ... ولنبحــث ، ونحــن نقترب من مجال رصد الإيقاع الشعري ، عن مستويات الإيقاع المتعددة ، وخاصَّة [كذا][٢] الإيقاع الداخلي ، ومن هذه المستويات :

أ. موسيقى الحرف .

ب. موسيقى الكلمة .

ت. موسيقى الأسلوب))[٣] .

إذًا نخرج من هذا الكلام أن مستويات الإيقاع الداخلي (الحــرف ، والكلمة ، والأسلوب) ، ولكل مستوى من هذه المستويات الثلاثة دور فــي الموسيقى والإيقاع ، فمن خلال رصد خصائص الأصوات اللغوية ((فــي النص الإبداعي تقودنا إلى الإيقاع الباطن ، الذي نحسُّه ولا نراه ، ندركــه ولا نستطيع أن نقبض عليه ، ويكمن هذا الإيقاع في تعــادل الــنغم عــن

---

(١) آفاق النص الشعري ٢٣ .

(٢) الصواب (ولاسيما) .

(٣) آفاق النص الشعري ٢٣ .

طريق مدَّات الحروف حينًا ، وعن طريق تكرارها حينًا آخر ، وعن طريق استعمال حروف مهموسة أو مجهورة تتساوى مع الإطار الموسيقي العام للقصيدة))[١] .

لا تقلُّ أهمية الكلمة عن الصوت في الإيقاع الداخلي ، لأنَّ الكلمات تتألف ((في متواليات إيقاعية مقفَّاة ومتجانسة استهلاليًّا ، نتيجة تماثلها الصوتي ، ويؤسس هذا حتمًا توازنات دلالية بين هذه الكلمات))[٢] .

فللكلمة ((إيقاع مؤثر في موقعها من النص وفي دلالتها اللغوية والإيحائية ، وذلك ما يسمُّونه بـ (الجرس اللفظي) ، وله صلة أكيدة بالموسيقى الداخلية في القصيدة))[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ٢٣ ــ ٢٤ .

(٢) ينظر : نقد استجابة القارئ ٧٨ .

(٣) آفاق النص الشعري ٢٤ ، اكتفى الدكتور عبد الدايم بالكلام على الحرف والكلمة في الموسيقى الداخلية ، ولم يتكلم على الأسلوب .

الخاتمة ونتائج البحث

انتهت هذه الجولة السريعة مع جماليات النص في مفهوم التكامل عند الدكتور صابر عبد الدايم ، والتي وقفنا خلالها على ملامح رائعة من هذه الجماليات ، لنرصد فكر هذا الناقد الكبير وتوجهاته ، وخرجت بعد هذا كله بمجموعة من النتائج ، وهي :

١. حدد الدكتور صابر عبد الدايم مستويات البناء الفني والجمالي بـ : المستوى الصوتي ، والمستوى الصرفي ، والمستوى النحوي ، والمستوى المعجمي ، والمستوى البياني ، والمستوى الكتابي ، والمستوى الإيقاعي ، والمستوى الدلالي .

٢. وصف الدكتور عبد الدايم المنهج التكاملي بأنه نزوع إلى تأصيل نظرية عربية نقدية ، إلاَّ إذا أعدنا إنتاجها ووظَّفنا دلالاتها وسياقاتها ، بحسب معطيات النص المنتج ، في مناخ يتنفس خصائص وجماليات اللغة العربية ، وهي تحفل بالثراء والعطاء والإيحاءات والأصداء .

٣. حدد الدكتور عبد الدايم مكونات النظرية الأسلوبية التي يعتمد عليها الناقد في المنهج التكاملي ، وبحسب النص وسياقاته وفضاءاته ، وهي : مفهوم الأسلوب ، والاختيار ، والانزياح والعدول ، والتلقي أو المتلقي ، والسياق .

٤. حاول الدكتور عبد الدايم التركيز على معالجة النقد العربية الجزئية للنص ، وتحديد محاورها من مبدأَيْ : خصوصية الأداء ، وتكامل الرؤية ، والمحاور هي : معالجة الشكل ، ومعالجة المعنى ، ونقد الشعور ، والوقوف على خصائص الشعراء ومذاهبهم الفنية ، والموازنة بين

الشعراء ، وتقسيم الشعراء وترسيخ أسس المنهج التاريخي .

٥. عَدَّ الدكتور عبد الدايم علم البلاغة ، بعلومه الثلاثة ، قواعد نظرية يستطيع الناقد خلالها الوقوف على جماليات النص الأدبي ، وعلى وفق ما يسمَّى بـ (المنهج الفني) .

٦. وصف الدكتور عبد الدايم البنيوية والتفكيكية بأنهما أحالتا النص إلى كابوس ثقيل ، لأنَّهما جعلتا من النص أحاجي وطلاسم ، فقام منهجهما على موت المؤلف من أجل أن يحيا النص .

٧. كشف الدكتور عبد الدايم عن تداخل الأجناس الأدبية في النص الشعري وتبادلها التأثر والتأثير ، ومثَّل على ذلك بتلاقي القصة والقصيدة في الشعر القصصي القائم على دعائم القصة الفنية من حوار وأحداث وشخصيات وغير ذلك من الأسس ، والمسرحية الشعرية ، وهي تقوم على أس الفن المسرحي ، مع عدم انطفاء البريق الشعري .

٨. خلط الدكتور عبد الدايم الفنون الجميلة ، كالرسم والتصوير والنحت والموسيقى ، بالشعر ، فكثير من الشعراء وصفوا تماثيل ورسومًا وحتَّى الموسيقى وكانت من مصادر إلهامهم الشعري .

٩. عرف الدكتور عبد الدايم (الإبداع الأدبي) بأنه ذلك الشعاع المنبثق من وجدان الأديب وعقله ، ليضيء آفاق الحياة أمامه وأمام الآخرين .

١٠.نص الدكتور عبد الدايم على الوقوف على نوعية الرؤيات والأفكار ، هل هي رؤية سياسية أو اجتماعية أو ذاتية أو دينية ، أم أن النص يموج بهذه الرؤى من خلال الرمز المشع واللغة الإيحائية ؟

١١.ركَّز الدكتور عبد الدايم على مسألة موسيقى الشعر من خلال

معرفة البحر الشعري، ثم البحث بعد ذلك في القصيدة وقافيتها وأوزانها وموسيقاها .

قائمة المراجع

١. آفاق النص الشعري في مرآة المنهج التكاملي دراسة نقدية في مواجهة النص ــ الأستاذ الدكتور صابر عبد الدايم ــ دار الكتاب الحديث ــ القاهرة ــ ط ١ / ١٤٣٣ هـ ــ ٢٠١٢ م .

٢. انفتاح النص الروائي ــ سعيد يقطين ــ المركز الثقافي العربية ــ بيروت ــ ١٩٨٩ م .

٣. الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ــ مصطفى جمال الدين ــ مطبعة النعمان ــ النجف ــ ط ٢ / ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

٤. جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم ــ الدكتور محمد عبد المطلب ــ الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ــ القاهرة ــ ط ١ / ١٩٩٥ م .

٥. حفريات المعرفة ــ ميشيل فوكو ــ ترجمة : فريد الزاهي ــ دار توبقال للنشر والتوزيع ــ الدار البيضاء ــ ٢٠٠١ م .

٦. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ــ الدكتور عز الدين إسماعيل ــ دار العودة ، ودار الثقافة ــ بيروت ــ ط ٣ / ١٩٨١ م .

٧. الشعر في بلاط الغساسنة ــ أنوار محمود مسعود الصالحي ــ رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد ــ بإشراف : الدكتورة ابتسام عبد الستار محمد ــ ١٩٩٩ م .

٨. الصورة الشعرية ــ سي دي لويس ــ ترجمه : أحمد نصيف الجنابي ــ دار الرشيد للنشر ــ بغداد ١٩٨٢ م .

٩. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ــ الدكتور جابر أحمد عصفور ــ دار الثقافة والنشر ــ ط ١ / ١٩٧٤ م .
١٠.العروض والقافية ــ الدكتور عبد الرحمن السيد ــ مطبعة قاصد خير ــ الفجالة .
١١.علاقة النقد بالإبداع الأدبي ــ الدكتورة ماجدة حمود ــ مطابع وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٩٧ م .
١٢.عودة أخرى للميثولوجيا البيضاء دريدا ونقاده في العقل والبلاغة ــــ برنارد هاريسون ــ ترجمة : رشاد عبد القادر ــ مجلة الآداب الأجنبية ــ اتحاد الكُتّاب العرب ــ دمشق ــ العدد ١٠٦ ــ ١٠٧ لسنة ٢٠٠١ م .
١٣.قواعد الفن ــ بيير بورديو ــ ترجمة : إبراهيم فتحي ــ دار الفكر ــ القاهرة ــ ط ١ / ١٩٩٨م .
١٤.القول الفلسفي للحداثة ــ يورجن هابرماس ــ ترجمة : فاطمة الجيوشي ــ منشورات وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ط ١ / ١٩٩٥ م .
١٥.منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ــ الدكتور صلاح فضل ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ط ٢ / ١٩٨٠ م .
١٦.موسيقى الشعر ــ الدكتور إبراهيم أنيس ــ المطبعة الفنية الحديثة ــ القاهرة ــ ط ٤ / ١٩٧٢ م .
١٧.النقد الأدبي أصوله ومناهجه ــ سيد قطب ــ دار الشروق ــ القاهرة ــ ط ٨ / ١٤٢٤ هـ ــ ٢٠٠٣ م .
١٨.النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ــ ستانلي هايمن ــ ترجمة : إحسان عباس ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ ط ١ / الجزء : ١ ، ١٩٥٨ م ، الجزء : ٢ ، ١٩٦٠ م .

١٩.نقد استجابة القارئ من العقلانية إلى ما بعد الحداثة ــ تحرير : جــين ب.تومبكنز ــ ترجمة : حسن ناظم ، وعلي حاكم ــ مراجعة وتقــديم : محمد جواد حسن الموسوي ــ المجلس الأعلى للثقافــة ــ القــاهرة ــ ١٩٩٩ م .
٢٠.النقد والأدب ــ جان ستاروبنسكي ــ ترجمة : بدر الــدين القاســم ــ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ دمشق ــ ١٩٧٦ م .